فصل محاضرة

اسبانيا العربيـــــة

ألقى الدكتور استانسلاو كيروخا اى دى ابركا اســتاذ الآداب الاسبانية فى جامعة صوفيا محاضرة قيمة باللغة الاسبانية فى مدرج الجامعة السورية بدمشق عنوانها « أسبانيا العربية » وقد لخصها الأستاذ لبيب الرياشى فيما يلى :

* * *

قسم المحاضر الكريم المنصف بحثه هكذا :

١ — نظرة عامة فى الفتوح العربية العالمية

٢ — افتتاح اسبانيا وتكوين مملكة عربية اسبانية

٣ — العلوم العربية والعمران ونوابغ العرب فى العلوم

٤ — سقوط الدولة العربية وأسبابه

٥ — الآثار الثمينة التى تركها العرب فى أسبانيا

المدنية العربية

إن اسبانيا بعد مرور خمسة قرون لا تزال عربية بدم سكانها وآدابهم وموسيقاهم ورقصهم وميولهم وحضارتهم

* * *

والمدنية العربية فى أسبانيا لا تزال إلى اليوم أسمى مدنية بريئة عرفها العالم

والكوكب الذى استنارت منه هذه المدنية أشعتها السامية هو « القرآن » وسيرة الرسول العربى

الفتوحات فى الاسلام

الخليفة فى الاسلام هو بمثابة قائد الجيوش العام ، والملك ، والبابا ؛ ورسالة الاسلام للعالم هى التبشير بالله واحد ؛ ولما كان المسلمون يعتقدون أن من مات مجاهدا فى سبيل الله وهدى العالم يكون جزاؤه الخلد ، كانت الجنود الاسلامية تضحى دون ماخوف ولا رهبة ، فتقاتل قتال البطل الباسل ، وبهذا افتتحوا سورية سنة ٦٣٨ ، ومصر سنة ٦٤٠ ، وتغلبوا على امبراطور القسطنطينية وافتتحوا الدولة الفارسية سنة ٦٤٢

كما افتتحوا قسما كبيراً من الهند سنة ٧٠٧ ، واكتسحوا الغرب وتونس والأرخبيل ومراكش ، ومن ثمة دخلوا اسبانيا منتصرين سنة ٧١١

ولم يذكر التاريخ أن امبراطورية بلغت من السعة فى الملك والكبر والمجد ما بلغته هذه الدولة الفتية

فتوح اسبانيا

لنبحث عن اسبانيا الآن : بعد أن افتتح العرب اسبانيا سنة ٧١١ على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد « ٩٢ هـ » بقيت مقاطعة أو إمارة تأتمر بأمر الخليفة ، ولكن فى عام ٧٥٦ استقلت المملكة العربية الاسبانية عن الخليفة الكبير

واتخذت هذه المملكة المستقلة « قرطبة » عاصمة لها فأصبحت أغنى عاصمة فى العالم وأوفر مكانة بعناية مؤسس هذه المملكة « عبد الرحمن الأول » ، وبرغم الثورات الكثيرة والاضطرابات العديدة ظلت هذه المملكة وطيدة الأركان من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر

وفى اسبانيا هذه كان يعيش قسم كبير من المسيحيين ترك لهم الاسلام حرية معتقداتهم وعاداتهم وحافظ على كنائسهم

ملوك اسبانيا

ويعد أفضل من حكم اسبانيا العربية الملوك الثلاثة :

« عبد الرحمن الأول ، وقد أسس قرطبة الجميلة المجيدة

عبد الرحمن الثانى ، وقد مهد الطرقات وشاد الأبنية العمومية الفخمة وأسال الأمواه فى المجارى الهندسية حيث لم يكن فى أوربا شىء من هذا

عبد الرحمن الثالث ٩١٢ — ٩١٦ عرف أنه كان أفضل ملك مثقف يحب العلم ويعمل على نشره ، وأقوى من جميع الملوك الذين عاصروه ، فقد نال انتصارات باهرة على الملوك المسيحيين الذين تحرشوا به حتى كان عدد كبير من الملوك الذين عاصروه يلتجئون اليه ويحتمون به

والحكم الثانى امتاز بحب العلم ونشر الثقافة ، ولقد أنشأ فى قرطبة مكتبة تحتوى أكثر من أربعمائة ألف مصنف

وفى عهد الخليفة هشام الثانى الضعيف الارادة تمكن المنصور وزيره الأول من محاربة الامارات المسيحية الثائرة

وسنة ١٠٠٢ اجتمع ملوك كابتجاليون وقفارا واجتماعهم وتضامنهم تغلبوا على هذا القائد الجبار فى واقعة « كلا ثانياسير » عاصمة شورا وهكذا لم يبق للعرب سنة ١٠٣١ سوى إمارات صغيرة أشهرها سافيجا وتولوزا

العلم والعمران

لم يشتهر العرب بالبطولة الحربية فحسب ، ولكنهم اشتهروا بالعلم والشعر والاقتصاد ، وعرفوا بتنشيط العلوم ونشر الثقافة

اقتبس العرب جذوة من علوم اليونان والفرس — فأشعلوا من تلك الجذوة منارة مضيئة

أسسوا مدارس علمية فى بغداد ودمشق ، أما فى اسبانيا فقد أنشأوا كلية « سالرنو » فى قرطبة ، وهى الكلية التى كانت لغتها عربية ، وعلومها عربية ، وأخلاقها عربية ، وكل ما فيها عربى ، وهى أقدم مدرسة طبية فى أوربة كلها

وهكذا ابتدأ العرب يشتغلون فى الكيمياء فاستكشفوا الكحول ، وأسسوا قصورا ومساجد وجنائن ، وجعلوا الأرياف بساتين زاهرة زاهية ، جروا اليها المياه فى أقنية هندسية ؛ لذا نقول بحق إن العرب كانوا أكثر مدنية فى القرون الوسطى من أوربا كلها

وإنى لأقول بحق إن المدنية العربية الاسبانية ، نعم المدنية العربية ، كانت جوهرة ثمينة فى ثقافتها وعلومها الاجتماعية وعمران مدنها وازدهارها فى جميع نواحى الحياة ، حتى إن مدنية باريس ولندن فى هذا العصر لم تمتازا عن حضارة العرب فى تلك العصور

إن قرطبة كانت تحتوى على مائتى ألف منزل ذى بناء شاهق وفن متقن ، وعلى ٦٠٠ مسجد ومستشفى وقصور فخمة ، وعلى ٩٠٠ حمام وجنائن هندسية زاهرة ، وأكثر من نصف مليون من السكان ، ولقد أسس ملوكها مدارس فى كل مزرعة وقرية ومدينة ، وعلموا الذكور والأناث القراءة والكتابة حتى لم يبق فى أسبانيا العربية أمى واحد

ولقد كان فى قرطبة جامعة رئيسية ؛ والى هذه الجامعة كان يقصد عشاق العلم وطلابه ، ومن مفاخر هذه الرسالة العربية أن النساء كن يثقفن ثقافة كاملة شاملة

نعم النساء المخدرات كن يجدن القراءة ويعرفن التاريخ والفلك و . . .

وهكذا كان العرب الاسبانيون يشتغلون فى كل العلوم ، وعن العرب الاسبانيين صدرت شعلة الكيمياء والرياضيات

وأكثر الفنون التى أجادها العرب الاسبانيون : الهندسة والموسيقى والشعر . ومن الأبنية الكبرى التاريخية مسجد قرطبة وقصر غرناطة ، وتميز كل منهما بأقواسه وأعمدته وزخرفه

من النسل العربى هذا نحن أبناء اسبانيا ، نحن الذين لانزال نستعمل حتى اليوم الطبل والغناء والموسيقى العربية والرقص العربى

الزراعة والصناعة :

وعناية العرب فى الزراعة كانت بالغة الحد الأقصى والعناية التامة ، فهم الذين زرعوا النخل ، والرز ، وقصب السكر ، والقطن ، الخ ...

أما الصناعة فقد تفوقوا فيها ، وأسسوا مفامل للجلد فى قرطبة ، والورق فى البندقية ، وهذه العامل كانت أول معامل من نوعها فى العالم

وفى عهد المنصور شعت المدنية العربية فأنارت أشعتها العالم . أما الأسس التى ارتكزت عليها هذه المدنية ، أما القطب الذى كونها وأدارها وعززها فهو « القرآن » وسيرة الرسول العربى ليصلوا الى أمنيتهم السامية فى تكوين حضارة صحيحة

وهنا عدد المحاضر أسماء عشرات من نوابغ العرب فى أسبانيا ونابغات العرب فى العلوم والفنون

ثم تطرق بعد ذكرهم إلى تغلب النصرانية عليهم بسبب تفرقهم وتخاذلهم وتضامن الأمراء المسيحيين واتحادهم سنة ١٤٩٢

ولقد عرض مشاهد القصور والمساجد والجنائن بالفانوس السحرى ، فاذا هى من الروائع التى تخلب الألباب ، وقال :

نور الدين الاسلامى

المادة الأصلية فى المدنية الاسلامية العربية الاسبانية هى نور الدين الاسلامى ، الدين الذى يجارى المدنية والحضارة فى أرقى وأسمى معانيهما

وأستطيع أن أصارحكم مؤكداً أن المدنية العربية هى فى الجوهر مدنية شعب يستوحى من الله

(قل هو الله أحد ، الله الصمد)

على أسس هذه العقيدة رفعت أمجاد الجامعة العربية الاسلامية ؛ إنها عقيدة دينية ، نعم ، ولكنها فى نفس الوقت أسمى قوة اجتماعية

وختم المحاضرة قائلاً :

انتهى الحكم العربى فى أسبانيا منذ خمسة قرون ، أجل :